الهوية الزنجية والتورية الثقافية في الشعر السوداني

"إلى غسان كنفاني" للفيتوري نموذجا-

د/ وداد بن عافية

جامعة باتنة

الملخص

يهدف هذا المقال إلى تناول ظاهرة الزنوجة في الشعر السوداني وفق رؤيا نقدية ثقافية، تسعى إلى الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة في نصوص "الفيتوري"، باعتبار أن الزنوجة نسق ثقافي مناهض لثقافة الضعف والاستهانة بالأصول العرقية للإنسان الأسود.

إن العبودية والاستعباد أنساق ثقافية مهيمنة على الفكر والسلوك البشري منذ الأزل، مما جعل شعر "الفيتوري" يتناص مع شعر "عنترة العبسي" في علاقته بقبيلته، ويتداخل أيضا مع أدباء "أمريكا اللاتينية" (إيمي سيزار) في مناهضتهم للعنصرية.

إن النقد الثقافي يبحث في الأنساق الدلالية المضمرة والتورية الثقافية من خلال المجاز الكلي للكشف عن المتواري ليس في الشعر فحسب، لكن في الثقافة ككل، واسترجاع الهوية الزنجية رهين بترميم الأنساق الثقافية الفاسدة وكشف العيوب النسقية المضمرة في المجتمع السوداني.

Summary:

This article is aiming at treating the phenomenon of the negritude in the Sudanese poetry according to the cultural and critical view, which attempts to reveal the hidden cultural systems in the"**Fitouri**, s **"**texts.

Since the term **negritude** is a cultural system contrasts with the culture of weakness and underestimationof the Negroesethnic races;

Both slavery and enslavement are cultural dominant mods and systems on the human thought and behavior from the outset ,what made **Fitouri**'s poetry analogous with that of**Antara** ben Chaddad in his relationship within his tribe ,the same with the Latin American authors such as **Emyceasar** in their opposition to the discrimination **.**

Cultural criticism concerned with the implicitconcepts via imagery and allegory to reveal theintricacy not only in poetry but in the culture as a whole. To restore negritude identity requires rebuilding the corrupted cultural aspects andfinding the flaws hidden in the Sudanese society.

مقدمة:

ظهر النقد الثقافي بوصفه ممارسة نقدية ما بعد حداثية ترفض التمركز، وهو ما عانت منه منهجيات الحداثة وما بعد الحداثة، وجاء كثورة معرفية وفلسفية جريئة تبشر برؤى مختلفة عن السائد والمغامرة في رفض مظاهر التحكم الثقافي النسقية، والتفاعل مع الظواهر "ليضم أطرا ثقافية نظرية وإجرائية مفتوحة وغير خاضعة لتقنين مرجعي أو سلطوي ما، بعيون مفتوحة ملونة بألوان الطيف كلها".

يهتم النقد الثقافي بالثقافة الجماهيرية والهامشية، والبحث عن الأنساق المضمرة لهذه المجتمعات حيث طمر لا وعيها الجمعي المتوارث لكشف دلالات جديدة للنص الأدبي في إطار فكرة المجاز الكلي والمؤلف الجماعي، فمعنى النص ليس موجودا في اللغة بل في الأنساق المتوارية خلفها، والتي لا بد من النبش فيها للوصول إلى الدلالة المضمرة للنص الأدبي.

تعتبر الزنوجة نسقا ثقافيا مناهضا لثقافة الضعف والاستهانة بالأصول العرقية للإنسان الأسود، كما يمثل الاستعباد نسقا ثقافيا مقابلا يكرس مبدأ الغلبة للأقوى وإذلال الشعوب المقهورة والسيطرة عليها، إنهما نسقان ثقافيان متوازيان تربطهما علاقة تناحرية أزلية، ويمكن تدارس هذين النسقين بتسخير المصطلح الإجرائي للنقد الثقافي الذي يتغلغل ويتسرب داخل هذه الأنساق لكشف عيوبها والدعوة إلى ترميمها.

مشكلة الدراسة:

تعاني الشعوب الزنجية عبر العالم من الاضطهاد والقهر والعبودية للإنسان الأبيض الذي نصب نفسه سيدا وراعيا للإنسان الأسود، وسرَّب إلى أعماقه معنى التبعية والعبودية الذي تحوَّل إلى نسق ثقافي متوارث لدى الشعوب في الكثير من الأقطار العالمية كأمريكا اللاتينية والسودان، وهو ما صورته رواية "روبنسن كروزو" لدانييل ديفو التي كرست مفهوم الأفضلية للإنسان الأوروبي الأبيض، والتبعية لمن هو دونه من الشعوب المستضعَفَة.

يعيش الزنوج حالة من القهر النفسي وعدم الرضا والرغبة الجامحة في استرجاع كينونتهم وقيمتهم كشعب مستقل لديه هويته وشخصيته الذاتية التي لا تخضع لأي سطوة أو تبعية خارجية، مما ولَّد حركة الزنوجة التي سعت إلى التأسيس لنسق ثقافي جديد مناهض لثقافة الضعف والاستهانة بالأصول العرقية للإنسان الأسود أينما وجد.

ولأن الشعر هو سجل ثقافي للشعوب، فقد عبرت الشعوب الزنجية المضطهدة في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وأوقيانيا عن واقعها بلسان أدبائها، وكان "محمد الفيتوري" أبرز الأسماء الإفريقية التي تبنَّت قضية الزنوجة كاستجابة للواقع الثقافي السوداني.

يبحث النقد الثقافي في الأنساق المضمرة المتوارية خلف البنية الظاهرية للنص، إنه يتسرب متغلغلا ونافذا إلى حيث هي العيوب النسقية المختبئة من تحت عباءة الجمالي، ولئن كان الخطاب الشعري للفيتوري يبدو ثوريا في ظاهره، فإنه يبطن في داخله عيوب الإنسان الزنجي التي أخضعته إلى سيطرة الآخر لأجيال متعاقبة جعلته يتوارث انهزاميته ودونيته وتبعيته.

- فما هي الأنســاق الثقافية المضــمرة في شــعر الفيتوري؟ وكيف يمكن الوصـول إلى المضـمر الدلالي من خلال النسـق الثقافي والمجاز الكلي والمؤلف الجمعي؟
- كيف تشـترك الشـعوب الزنجية المضـطهدة في عيوبها الثقافية المتوارثة؟ وكيف يمتد اللاوعي الجمعي في نسـق الخطاب الشـعري لشـعراء أمريكا اللاتينية وعصــر الجاهلية ليتناص مع شــعر الفيتوري؟ وما هو القاســم المشــترك بينهم؟ وما هو العيب المتواري في الأنســاق الثقافية للشــعوب الزنجية المضطهدة الذي يمكن بتجاوزه الانفتاح على واقع جريء ومغاير يمكن أن يكون بداية تاريخ جديد لهذه الشــعوب؟ وهل يمكن للمغلوب أن يتحول إلى قوة مكافئة لقوة الغالب إذا أدرك عيوبه الثقافية؟
- ما هي الأنساق الثقافية المستترة في شعر الزنوجة للفيتوري؟ وهل يمكن للتورية الثقافية كمصطلح إجرائي الكشف عنها؟

يهدف هذا المقال إلى الإجابة عن هذه الإشـكالات بمقاربة قصـيدة "إلى غسان كنفاني" لمحمد الفيتوري بتسخير مصطلحات النقد الثقافي: التورية الثقافية، والمضـمر الدلالي، والدلالة المضـمرة، والمجاز الكلي، والمؤلف الجماعي، للبحث عن قضــية الزنوجة كنســق ثقافي مناهض للعبودية والاستعباد يهدف إلى إحلال مشروع بديل أو نسق ثقافي بديل في الواقع السوداني.

اسـتحدث الأدباء والسـياسـيون مفهوم "الزنوجة" كحركة نضــالية مناهضــة للعنصـرية لمسـاعدة السـود في الانعتاق من عبوديتهم واسـتعادة حقهم الكامل في ممارســة حياتهم بحرية، وقد أســهم في ظهور حركة الزنوجة أواخر العشــرينيات وأوائل الثلاثينيات من القرن العشـرين طلاب قدموا للدراسـة في باريس من البحر

الكاريبي وغرب إفريقيا، أبرزهم: "**ليوبولد سدار سنغور**" من السنغال، و"**إيمي سيزار**" من جزيرة المرتنيك بالبحر الكاريبي.

اهتم هذان الشاعران بموضوع إعادة "بناء الإنسان الإفريقي الجديد المكبل بتركة ثقيلة من التخلف والشعور بالضياع، وسمي هذا الموضوع بالزنوجة Negritud "[1] ، كما أسهما في تأسيس مجلة الطالب الأسود Etudiant Noir لدعم هذه الحركة الأدبية الجديدة.

ظهرت كلمة الزنوجة أول مرة سنة 1939م في قصيدة "إيمي سيزار" (دفتر العودة إلى أرض الوطن) كدعوة احتفائية بالزنوج والثقافة الزنجية باعتبار أن الزنوجة واقع وثقافة، وعلى الزنجي تقبُّل وضعه والتعايش معه، فيما طور "سنغور" مفهوم الزنوجة: "فقد كان فيلسوفها وعقلها، وعلى يديه اتخذت أبعادا متطورة، وانتهت إلى احتضان الكون، ورفض العنصرية والتعصب من أي نوع، دون التخلي عن أساسها الفكري الذي لخصه هو نفسه، في قوله: "إنها إدراك القيم الثقافية الإفريقية" والدفاع عنها وتطويرها (...) فهي ليست عنصرية وإنما ثقافة"[2].

تسعى الزنوجة إلى التأسيس لنسق ثقافي جديد مناهض لثقافة الضعف والاستهانة بالأصول العرقية للإنسان الأسود أينما وجد، ولأن الشعر يمثل سجلا ثقافيا للشعوب "وهذا مبدأ ثقافي عام يصل إلى حد القانون العلمي"[3] ، فقد عبرت الشعوب الزنجية المضطهدة في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وأوقيانيا عن

---

(1) الصادق محمد آدم، **قضايا الأدب الافريقي وتحدياته: قضية الزنوجة**، سودانيل صحيفة إلكترونية سودانية، ص01، شبكة الأنترنيت:www.sudaress.com

(2) نفسه. ص ن.

(3) عبد الله الغذامي، **القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة**،(ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 2009)، ص174.

واقعها، بلسان أدبائها، وكان أبرز صوت إفريقي تبنى قضية الزنوجة هو "محمد الفيتوري" كاستجابة للواقع الثقافي السوداني.

جرت العادة على تدارس شعر الزنوجة عند "الفيتوري" على أنه خطاب ثوري تحرري يتبنى قضية السود الأفارقة في علاقتهم بالإنسان الأوروبي الأبيض على نحو من التعميم، الذي أغفل الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة في نصوصه، مما جعل هذا النوع من النقد الأدبي المعتمد يوقع نفسه ويوقعنا "في حالة من العمى الثقافي التام من العيوب النسقية المختبئة من تحت عباءة الجمالي"[4].

يكشف شعر "الفيتوري" عن صراع تاريخي وثقافي متوارث بين حضارتين غير متكافئتين صنعته العنصرية والتمييز العرقي كنسق ثقافي في المجتمعات البشرية، يمارس هيمنته بتجليه في الأفعال الإنسانية بشكل متوارث ولاشعوري، مما أدى إلى بروز ثقافتين عالميتين متمايزتين إحداهما غالبة والأخرى مغلوبة، مع هيمنة الأقوى ماديا وفكريا وعرقيا (ثقافة الرجل الأبيض)، واستسلام الأقل نسبا وقوة (ثقافة الرجل الأسود)، ومن السهل تلمس هذا الصراع الثقافي في شعر "الفيتوري": "والمثير حقا في هذا السياق هو أن هذه الأنساق الثقافية ظلت غير قابلة للنقاش آمادا طويلة، ربما لأنها تعبير عن إنتاج معرفي جمعي لا يقبل المساءلة، والنسق/التقليد لا يحيل إلى الواقع المعاش، بقدر ما يعمل بآلية إنتاجه الجمعي الخاص على تشييد أفكار تحلق فوق المعاش، كل نسق/ تقليد ينحت فكرة/ حدثا، ويعيد نحته بطريقته الخاصة، فالأنساق ليست صورة للفكر فحسب، بل هي قالب الفكر ومادته ومشكلته"[5]، يقول الفيتوري:

---

[4] عبد الله الغذامي، **النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية**،(ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء،2001)، ص 8.

[5] عبد الفتاح أحمد يوسف، **لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة**، (ط1،الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، 2010)، ص137.

جبهة العبد ونعل السيد
وأنين الأسود المضطهد
تلك مأساة قرون عبرت
لم أعد أقبلها لم أعد
كيف يستعبد أرضي أبيض
كيف يستعبد أمسي وغدي[6]

يبدو الصراع بين ثقافتين منذ المطلع: جبهة العبد (ثقافة المستعبَد) في مقابل نعل السيد (ثقافة المستعبِد)، وهما نسقان ثقافيان متوارثان في المجتمعات البشرية، فما "الفيتوري" سوى امتداد لصوت "عنترة العبسي" الذي مثل في العصر الجاهلي نسقا فرديا مستعبَدا في مواجهة نسق جمعي مستعبِد يتمثل في القبيلة:

أعادي صرف دهر لا يعادىوأحتمل القطيعة والبعادا
وأظهِر نصح قوم ضيعوني وإن خانت قلوبهم الودادا
أعلل بالمنى قلبا عليلا، وبالصبر الجميل وإن تمادى
تعيرني العدى بسواد جلدي وبيض خصائلي تمحو السوادا[7]

فعنترة العبد الأسود يمثل ثقافة السود والقبيلة تمثل ثقافة المسيطر والمهيمن، وهذه "الجدلية تبرز بوضوح موقف المجتمع الجاهلي من طبقة العبيد مثلما تعاين ازدراءه العنيف لهذه الطبقة مما ولد عند عنترة، صوت الممثل لهؤلاء العبيد، حس النقيصة والظلم في مجتمع لا يسود فيه إلا الأحرار الأقوياء"[8] .

---

(6) محمد الفيتوري، **قصيدة إلى غسان كنفاني**، شبكة الأنترنيت: www.adab.com
(7) عنترة العبسي، **الديوان**، (ط4، مطبعة الآداب، بيروت، 1893)، ص29.
(8) يوسف عليمات، **جماليات التحليل الثقافي، الشعر الجاهلي نموذجا**، (ط1، دار الفارس للنشر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، بيروت، 2004)، ص 256.

إن العبودية والاستعباد أنساق ثقافية مهيمنة على الفكر والسلوك البشري منذ الأزل، حتى على مستوى المجتمع الواحد، وذلك بظهور الطبقية، "ويبدو أن أول ظهور تاريخي للطبقة (...) كان مع انفصال القبائل التي تمارس الزراعة عن تلك التي تربي الماشية، ومنه نشأ نوع من الاقتصاد التمايزي بين من يملك أكثر ومن يملك أقل وبين من يمتهن هذه المهنة أو تلك حتى تحول الناس من مرحلة الكفاف إلى مرحلة الترف، وصارت الدرجات"[9].

تشتمل نصوص "الفيتوري" على أنساق ثقافية ذات بعدين معلن ومضمر، الأول منهما هو النسق الثقافي المعلن، ويتمثل في الثنائية الضدية (السود، البيض)، أما النسق الثقافي المضمر، فهو ما تكشف عنه التورية الثقافية كمصطلح إجرائي يستعمل في الكشف عن المضمر واللاشعوري "هو مضمر نسقي ثقافي لم يكتبه كاتب فرد، ولكنه وُجِدَ عبر عمليات من التراكم والتواتر حتى صار عنصرا نسقيا يتلبس الخطاب ورعية الخطاب من مؤلفين وقراء"[10] .

يتحرك النسق الثقافي المضمر في اتجاه معاكس للمعلن في قصيدة "**إلى غسان كنفاني**"، التي أنتجها المؤلف المزدوج الذي يمثل "الفيتوري" طرفه الأول، أما الطرف الآخر فهو الثقافة ذاتها، أو ما يسميه "الغذامي" "بالمؤلف المضمر"، إنه "نوع من المؤلف النسقي (...) بمعنى أن المؤلف المعهود هو ناتج ثقافي مصبوغ بصبغة الثقافة، أولا، ثم إن خطابه يقول من داخله أشياء ليست في وعي المؤلف، ولا هي في وعي الرعية الثقافية، وهذه الأشياء المضمرة تعطي دلالات تتناقض مع معطيات الخطاب سواء ما يقصده المؤلف أو ما هو متروك لاستنتاجات القارئ"[11] .

---

(9) الغذامي، **القبيلة والقبائلية**، مرجع سابق،ص 172.
(10) الغذامي، **النقد الثقافي**، مرجع سابق، ص 71.
(11) نفسه، ص 76.

1- عتبة العنوان والدلالة المضمرة:

يحتل العنوان موقع الثريا بتصدره وتوسطه صفحة النص، مشتملا على دور وظيفي مزدوج عتباتيا فهو عنوان وإهداء في نفس الوقت، ولعل القارئ يفهم أن القصيدة تكريم للروائي والقاص والصحفي الفلسطيني "غسان كنفاني"، وأن الشاعر يريد استعادة ذكراه برفع الهمم ومواصلة رسالته النضالية، إلا أن السياق التاريخي "لغسان كنفاني" يضمر دلالات في شخصه، فقد عاش منفيا مؤرقا بهاجس "المكان" أو "الفردوس المفقود"، ومات مفجرا إلى أشلاء متناثرة، فهو ظاهريا رمز للكفاح، لكنه ضمنيا يحمل دلالة مضمرة تتمثل في الفقد والانقسام والتمزق، ولا يمكن أن نفهم القصيدة في سياقها الثقافي بعيدا عن هاتين الدلالتين.

2- المتن الشعري بين الأنساق الثقافية والدلالة المضمرة:

يسعى الفيتوري إلى قراءة الواقع الثقافي السوداني مع تدخل اللاشعور من خلال تواجد ثلاثة ذوات فاعلة في القصيدة، وهي: غسان كنفاني، الشاعر، الوطن، في بنية شعرية سكونية كامنة، تتسم بتعطيل الزمن وتأجيل الحركة والفعل:

لحظة... ريثما تتأملنا الغيمة الراحلة
ثم تعبر باكية
ريثما تتلامس أشرعة الموت فينا
لحظة، ثم عد

توحي الجمل الاسمية (لحظة، ريثما، لحظة)، بأن وقت التغيير لم يحن بعد في الثقافة السودانية، وأن واقعها المكدر والمثقل بالهموم سيستمر، فالغيمة لم ترحل بعد لكي تبكي الوطن وتخصبه وهي لا تزال تحجب شمس التغيير إلى أن تصل الأزمة ذروتها (تتلامس أشرعة الموت فينا)، عندها ينفجر الواقع السوداني

ويحدث المخاض (عد في مخاض النهار)، لأجل ولادة جديدة للإنسان السوداني المتصف (بالموت) الذي أصبح حقيقة يومية يستسلم لها السوداني نفسيا، فهو يؤمن داخليا بعبوديته ونقصه وتبعيته كإنسان أسود، فالشعور بالدونية نسق ثقافي متوارث في المجتمع السوداني، كما لو كان الإنسان يولد مبرمجا لأن يعيش ناقصا بحسب الثقافة التي ينتمي إليها، ف:. "الثقافة ليست مجرد حزمة من أنماط السلوك المحسوسة، كما هو التصور العام لها (...) ولكن الثقافة بمعناها الأنثروبولوجي الذي يتبناه قيرتز هي آليات الهيمنة، من خطط وقوانين وتعليمات، كالطبخة الجاهزة، التي تشبه ما يسمى بالبرامج، في علم الحاسوب، ومهمتها هي التحكم بالسلوك"[12].

إن الموت يعني ثقافة الضعف والاستهانة بالأصول العرقية للإنسان السوداني والإفريقي، وهي ثقافة متوارثة، فالسوداني ينظر إلى نفسه في "مرايا قديمة"، بعيون قديمة، مطاردا بلعنة السواد التي يورثها لأبنائه المنهزمين مسبقا نتيجة لانتمائهم العرقي دون نظرة مستقبلية تجاوزية تسترجع الثقة في هذه النفوس المتعبة جيلا بعد جيل:

المرايا القديمة
ملصقة في العيون القديمة
يا وطنا يتفجر فيه العذاب
ويهرم أطفاله الضائعون
على طرقات الهزيمة
يا وطنا أثقلته الجريمة
فتهالك تحت جراح الجريمة

(12) المرجع السابق، ص74.

يسقط في قدر الجيل

والآخرون هم الآخرون

إن البنية النفسية للسوداني متعبة ومرهقة وممزقة، لأنها تقر ضمنيا بالنقص والعبودية، حتى وإن بدا السوداني مناهضا ومكافحا للاستعمار الدخيل تاريخيا، لكنه يقر نفسيا بعبوديته:

لقد صلبوك على صخرة الانحناء

إنها نفسية "سيزيف" العبثية، فكما أن إيصال "سيزيف" الصخرة إلى الذروة مستحيل، فكذلك مقارعة السوداني الأسود للسيد الأبيض والتخلص من فكرة الدونية نفسيا وارتقائه إلى مكانة عليا مستحيل، فانتماؤه العرقي يحتم عليه الانحناء نفسيا، وهو نسق ثقافي متوارث عند الشعوب السوداء.

يكشف المضمر الدلالي في القصيدة عن الشرخ النفسي في ثقافة الإنسان السوداني، الذي يبدو منتفضا تاريخيا، لكنه متشظٍ نفسيا، لإحساسه بالفقد والانقسام والتمزق الداخلي:

آه .. يا وطني

لكأنك، والموت والضحكات الدميمة

حولك، لم تتشح بالحضارة يوما

ولم تلد الشمس والأنبياء

فالدلالة المعلنة توحي بأن الشاعر يستنهض الهمم للمقاومة، مثلما يبدو في العنوان باستحضار "غسان كنفاني" المناضل، إلا أنه أحدث التورية الثقافية للواقع السوداني المرتبط بالفقد والشرخ والتشظي النفسي، فقد تسربت الدلالة الضمنية للعنوان إلى أوصال النص من خلال الأنساق المضمرة.

يبدو الأدب الزنجي مناهضا للعنصرية، مقاوما للتمييز العرقي في ظاهره، إلا أنه يسفر عن النفوس الضعيفة للسود المؤمنة في أعماقها بانتمائها العرقي الضعيف وبعقدة النقص، وهو نسق ثقافي متوارث بشكل لاشعوري عند السود، لذا نجده يتسرب إلى الأنساق الشعرية متواريا خلف مجازاتها وأسئلة المكان والجنس والعرق والهوية. وهو ما نجده لدى شعراء أمريكا اللاتينية الذين يمجد أدبهم ظاهريا "العودة إلى الثقافة الوطنية واستعادتها والتشبث بالأصول العرقية واللونية والأصلية"[13] ، ويتستر ضمنيا عن البنية النفسية الهشة للسود، وهو ما نلمسه في قصيدة (دفتر العودة إلى أرض الوطن) لإيمي سيزار[14] :

زنوج كالقيء
وحوش تصيدها الكلاب في (كالابار)
ماذا؟ أنصم الآذان؟
ونثمل حتى الموت من الترنح والسخرية واستنشاق الضباب !
عفوا أيها الإعصار...أيا رفيقنا اسمع اللعنات مكبلة تتصاعد من جوف السفينة
حشرجة الموتى، صوت أحد يلقى في الماء..
عواء امرأة تلد، كشط أظافر تبحث عن أعناق..
لسعات سياط.. هوام تعيث وسط الكلل..

---

(13) كمال رايس، **الاحتفاء بالهوية والقومية العرقية: أدب الزنوجة أنموذجا** (مخطوط)، ضمن مشروع PNR، ص31.

(14) تعود أصوله إلى جزر المارتنيك بالبحر الكاريبي، فهو من شعراء أمريكا اللاتينية التي "تشمل إضافة إلى قارة أمريكا الجنوبية جزءا من أمريكا الشمالية، ومجموعات الجزر الممتدة على الحافات الخارجية للبحر الكاريبي والتي كانت تدعى (بجزر الهند الغربية)". ينظر: حسن طه نجم، **أمريكا اللاتينية- أرضا وسكانا دراسة جغرافية إقليمية**،(ط1، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، 1990)، ص5.

ما خصنا شيء أبدا على التمرد، والإقدام على مغامرة بائسة [15]

إن الزنجي في أمريكا اللاتينية ليس أفضـــل حالا من الزنجي الإفريقي، فهو مسلوب الهوية (زنجي كالقيئ)، حيواني (وحوش، عواء)، ثمل حتى الموت، ملعون (اسمع اللعنات)، مغلوب (صوت أحد يلقى في الماء، لسعات سياط)، مستسلم لعبوديته، منهار، مسلم بأصوله العرقية الضعيفة، مؤمن بالدونية، يعاني التمزق والتشظي النفسي كنسق ثقافي عام، انتقلت هذه الأنساق من "مجالها الثقافي الواسع، إلى سياقها النصي الخاص، حاملة معها دلالات معرفية وفكرية، ومهمتنا الأساسية هي تتبع ارتحالات هذه الأنساق من مجالاتها الثقافية العامة إلى سياقها النصي الخاص في صورة علامات فكرية، وتفسير إحالاتها المعرفية سيميائيا، وكذا البحث في العلاقات التي تربط التشكيلات الخطابية بالميادين الثقافية"[16].

إن الحالة النفسية للإنسان السوداني تنعكس على وجهه وقد أعشب العار فيه:

وأعري الوجوه التي
..أعشب العار فيها
فأضحت خرائب معشبة
وأعري السطور المهانة
والضعف بالضعف منفعلا
وأعري الخيانة
نائمة، كملاك عميق الطهارة،
فوق سرير الخيانة

---

(15) هيثم عبد الله صالح، **الزنوجة في الشعر الإفريقي والكريولي**،ص1، شبكة الأنترنيتwww.almashhed.com .

(16) أحمد يوسف، **مرجع سابق**، ص 136.

تتبع عقدة النقص والإحساس بالدونية والعبودية من الزنجي نفسه، وهي خيانة داخلية لذاته وكيانه كإنسان حر متساو مع غيره، وقد تسرب هذا الإحساس في الكيان الثقافي السوداني بشكل لاشعوري، لذا فإن استرجاع الهوية الزنجية رهين بترميم الأنساق الثقافية الفاسدة، وكشف العيوب النسقية المضمرة فيها (وأعري...الضعف/بالضعف)، فالظاهر في شعر "الفيتوري" أنه يواجه المستعمر الأبيض (القوة/ بالضعف)، إلا أن المضمر الدلالي يتمثل في مواجهة الذات أولا وتخليصها من عيوبها وانشقاقها الداخلي لإعادة التوازن إليها، فالزنوجة كحركة أدبية ثقافية تهدف إلى التأسيس لنسق ثقافي بديل، يتجاوز ثقافة الإقرار بالهامشية والدونية والاستهانة بالأصول العرقية في المجتمعات السوداء باسترجاع الزنجي ثقته بنفسه وتحقيق التوازن المرجو، لذا يتفق شعراء الزنوجة على قراءة الواقع الثقافي للسود وتفكيكه وإعادة كتابته من خلال موقف الثورة والرفض.

3- الهوية الزنجية ودلالة التجاوز:

إن القضية في أصلها الأول كانت مبنية على: "التساوي بين الناس لأن المعاش كان يقوم على الضروري كما أشار ابن خلدون (المقدمة 121/ 129) وبما أنه يقوم على الضروري ولا يحفل بالترفي فهذا يلغي فرص التنافس بين الناس، ولا يعتدي أحد على أحد لأن ما يملكه هذا الفرد يماثل ما يملكه فرد آخر"[17] .

فالطبقية ومبدأ المفاضلة اقتصاديا وعرقيا لم يكن أصلا ثقافيا، لكنه تأصل نتيجة لظروف معاشية مستحدثة، كالتوسع العمراني واكتشاف أماكن جغرافية جديدة واختلاط الشعوب بعضها ببعض وظهور طفرات وراثية على مستوى القبيلة، مثلما هو الحال في قبيلة "عبس" التي أسهمت في ترسيخ الرؤية المتعالية

(17) الغذامي، **القبيلة والقبائلية**، مرجع سابق، ص 172.

للعرب كنسق ثقافي جمعي، وزرع الإحساس بالدونية لدى السود الذين ينتمون إلى أصول حبشية أو نوبية أو زنجية، فالمجتمع الجاهلي يعامل السود انطلاقا من متخيل: " ظل يرتوي من مخزون الصور النمطية عن الأسود والسواد في هذا المجتمع، ومن ممارسات هذا المجتمع ضد الأسود المهمَّش، مع ما احتفظت به الذاكرة الجماعية من حروب وعلاقات صراعية مع الأسود الحبشي، مع ما أفرزته الأنساق الثقافية العربية من دلالات سلبية انتقاصية – في الغالب– ضد الأسود والسواد (...) ذلك الآخر القصيّ المفرط في (...) جهله وغبائه وبطشه وحيوانيته الأليفة أو المتوحشة"[18].

إن علاقة السلطة بالمثقف غالبا ما تكون: " محفوفة بالمخاطر، فالمثقف ينتظم في علاقة توتر مزمنة مع السلطة، علاقة ضدية، طرفها السلطة (إجراءات قمعية) وطرفها الثاني (المثقف) تهدف إلى إقصاء دوره، بوصفه مرجعية تسهم في تعميق وعي المجتمع بنفسه في حقبة تأريخية معينة (...) وتمثل السلطة (بنية المركز) بينما يقع المجتمع على هامشها في الأنظمة الديكتاتورية. أما عناصر النخبة الثقافية الذين يمثلون المركز الاجتماعي فهم فئات لها حضور فعال في الواقع: النخبة السياسية، الدينية، والثقافية بالمعنى المباشر: الأدباء والفلاسفة، والمثقفون هم النخبة المستنيرة التي لها وظيفة فكرية عقلية، تحديثية، أخلاقية وهي تشكل المرجعية الأساسية للأفكار السائدة في المجتمع، وتؤدي دورا طليعيا في ضبط القيم، والممارسات الاجتماعية، وتسعى لتطويرها وتجديدها داخل أطر عقلية متماسكة في إطار نقدي يؤمن بالاختلاف والمغايرة وتعدد

[18] نادر كاظم، **تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط**، (ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار الفارس للنشر، بيروت، الأردن، 2004)، ص160.

المنظورات والاختبارات، وتتفاعل مع الوقائع الجديدة اســـتنادا إلى رؤية متنوعة تقوم على النقد والتوصل والتواصل والتفاعل"[19].

ينطلق الشاعر من الواقع والثقافة السائدة، ليؤسس أنساقا ثقافية فردية، لما له من قدرة وحساسية في النفاذ إلى العيوب النسقية المهيمنة في ثقافته ورغبته في تجاوزها بترسيخ قيم ثقافية جديدة، كما هو الحال لدى شعراء الزنوجة، فالشعراء لايؤسسون ولا يروجون للعيوب النسقية الثقافية في خطاباتهم الشعرية كما يقول الغذامي[20]، بل يطمحون إلى التغيير والتجاوز من خلال إعطاء قيم بديلة، مثلما فعل "عنترة العبسي" بدفاعه عن السود و"تشكيل نسق فردي جديد يتعامل مع النسق المضاد وفق معطياته الثقافية ليجرد هو الآخر نسقا فوقيا يخترق النسق المضاد كي يكشفه ويصحح مفاهيمه"[21]، وهو ما عبر عنه شعريا بقوله:

لئن يعيبوا سوادي فهو لي نسب يوم النزال، إذا ما فاتني النسب
يعيبون لوني بالسواد وإنما فعالهم بالخبث أسود من جلدي
يعيبون لوني بالسواد جهالة ولولا سواد الليل ما طلع الفجر
وإن كان لوني أسودا فخصائلي بياض ومن كفي يستنزل القطر[22]

إن الزنوجة عند عنترة نسق ثقافي بديل عن النسق الجمعي المهيمن، والزنوجة عنده ترتبط بكشف عيوب الآخر (فعالهم بالخبث أسود من جلدي) والدعوة إلى تحقيق التكامل والتعاون (لولا سواد الليل ما طلع الفجر)، مع إعادة الاعتبار للإنسان الأسود بأخلاقه وفروسيته (لئن يعيبوا سوادي فهو لي نسب/ يوم النزال).

---

(19) بشرى موسى صالح، **بويطيقا الثقافة نحو نظرية شعرية في النقد الثقافي**،(ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2012)، ص 31-32.
(20) ينظر: الغذامي، **النقد الثقافي**، مرجع سابق، ص59 .
(21) عليمات، **مرجع سابق**، ص 257.
(22) عنترة، **الديوان**، ص31، 87، 45، 120.

إن الزنوجة نسق ثقافي يرتبط "بمفهوم استقلالي يرفض الذوبان الثقافي والانصهار السياسي والهيمنة البيضاء على ثقافة إفريقيا، وتعتبر استنهاض الهمم وتنمية الجذور والاعتزاز بها دون انغلاق عن العالم الخارجي"[23].

ينتفض الفيتوري في شعره رغبة في تجاوز عقدة النقص لدى الزنجي وإخراجه من حالة الكمون النفسي المتوارث جيلا عن جيل، فعبارة (أنظر... أنظر) تشتمل على تورية ثقافية تتمثل في المضمر الدلالي المرتبط بالعماء الذي يعيشه السود وتكرار (أنظر...أنظر) تأكيد على هذه الدلالة، فالفيتوري غير راض عن التمثيل الذي شكلته الثقافة العالمية والعربية عن الإنسان السوداني وثقافته، إلا أنه وقع في حبائل هذا التمثيل على غرار عنترة العبسي، فإذا كان التمثيل الذي شكلته الثقافة العربية عن الإنسان الأسود "مؤشرا على النقص والقبح والمرض والتشوه، فليس أمام هذا الأسود الخاضع إلا التسليم بصدق ذلك، فهو لا يدفع هذا القول، ولا يسعى إلى نقضه، بل إنه مسلِّم بقبح سواده وتشوه بدنه، وهو ما يظهر في رغبته في ستر سواده بكل الوسائل" [24].

يحمل الفيتوري من جهة أخرى رؤيا طوباوية، فهو يريد تجاوز الواقع السوداني بإحلال ثقافة بديلة نادى بها عنترة العبسي من قبله، فـ " الأنساق الثقافية هي قوانين/تشريعات أرضية من صنع الإنسان- في مقابل التعاليم السماوية التي أنزلها الله تعالى في الأديان- وضعها الإنسان لضبط نفسه ولتصريف أموره في الحياة. وهي (...) قابلة للتطور شأنها شأن كل عناصر الحياة"[25] ، والأنساق البديلة قبل أن تتجسد هي مشاريع فردية أو أنساق ثقافية فردية يعبر عنها الشعراء بضمير المتكلم:

---

[23] عبدالله صالح، **مرجع سابق**. ص02.
[24] كاظم، **مرجع سابق**، ص 502- 503.
[25] أحمد يوسف، **مرجع سابق**، ص 151.

أتمرد فيك على الموت يا وطني
جاعلا منه سيفي
وقنبلتي
وشهادة جيلي الطعين
وأعود أقاتل باسمك
وفي ظلمات السكوت
لأعلم من قتلوني
أنني وطن لا يموت

ولئن كان التجاوز عند عنترة يتحقق بفعل الفروسية ومكارم الأخلاق، فإنه عند الفيتوري يحصل بتجاوز الشرخ والتمزق النفسي الحاصل في ثقافة السود (أتمرد فيك على الموت يا وطني/ جاعلا منه سيفي) أولا، وبالشعر ثانيا، الذي سيكشف العيوب النسقية المتوارثة في المجتمع السوداني/ الإفريقي، واستعادة الثقة بالأنا الممزقة:

سأصير حديقة نار
تحلق أطيارها في زوايا البيوت
وأعري الوجوه

عندها فقط يتوقف الزمن المعطل في بداية القصيدة (لحظة... ريثما تتأملنا الغيمة الراحلة) ويحدث المخاض بإحلال أنساق ثقافية بديلة قائمة على الثقة والتوازن النفسي:

عد في مخاض النهار
فجوة في جدار
أو شظايا انفجار

أو دماء تخط قصيدة عشق
على مقصلة
ثم ترسم شارتها
فوق أزمنة الغاصبينا.

إن إحلال ثقافة بديلة جديدة محل الثقافة المهيمنة يعني التحدي والثورة، وإعادة زرع قيم بديلة تغير النفوس والذهنيات، وتؤسس قناعات جديدة ليس على مستوى المجتمع السوداني فحسب إذ لابد أن تؤمن الثقافات المختلفة بالمعطيات والقيم الجديدة حتى تتقبل فكرة التعامل والتعاطي معها بمنظور جديد وهو أمر ليس بالهين بالتأكيد.

الخاتمة:

تشتمل نصوص "الفيتوري" على أنساق ثقافية ذات بعدين معلن ومضمر، الأول منهما هو النسق الثقافي المعلن، ويتمثل في الثنائية الضدية (السود، البيض)، أما النسق الثقافي المضمر، فهو ما تكشف عنه التورية الثقافية كمصطلح إجرائي يستعمل في الكشف عن المضمر واللاشعوري، هو مضمر نسقي ثقافي لم يكتبه كاتب فرد، ولكنه وُجِدَ عبر عمليات من التراكم حتى صار عنصرا نسقيا يتلبس الخطاب ويتسرب إلى الأنساق الشعرية متواريا خلف مجازاتها وأسئلة المكان والجنس والعرق والهوية. وهو ما نجده لدى شعراء أمريكا اللاتينية الذين يمجد أدبهم ظاهريا العودة إلى الثقافة الوطنية واستعادتها والتشبث بالأصول العرقية واللونية والأصلية.

يؤمن السوداني داخليا بعبوديته ونقصه وتبعيته كإنسان أسود، فالشعور بالدونية نسق ثقافي متوارث في المجتمع السوداني، كما لو كان الإنسان يولد مبرمجا لأن يعيش ناقصا بحسب الثقافة التي ينتمي إليها.

تتصف البنية النفسية للسوداني بالتعب والإرهاق والتمزق، لأنها تقر ضمنيا بالنقص والعبودية، حتى وإن بدا السوداني مناهضا ومكافحا للاستعمار الدخيل تاريخيا، لكنه يقر نفسيا بعبوديته.

إن استرجاع الهوية الزنجية رهين بترميم الأنساق الثقافية الفاسدة، وكشف العيوب النسقية المضمرة فيها، فالظاهر في شعر "الفيتوري" أنه يواجه المستعمر الأبيض (القوة/ بالضعف)، إلا أن المضمر الدلالي يتمثل في مواجهة الذات أولا وتخليصها من عيوبها وانشقاقها الداخلي لإعادة التوازن إليها، فالزنوجة كحركة أدبية ثقافية تهدف إلى التأسيس لنسق ثقافي بديل، يتجاوز ثقافة الإقرار بالهامشية والدونية والاستهانة بالأصول العرقية في المجتمعات السوداء باسترجاع الزنجي ثقته بنفسه وتحقيق التوازن المرجو، لذا يتفق شعراء الزنوجة على قراءة الواقع الثقافي للسود وتفكيكه وإعادة كتابته من خلال موقف الثورة والرفض.

يحمل الفيتوري رؤيا طوباوية مستقبلية، فهو يريد تجاوز الواقع السوداني بإحلال ثقافة بديلة نادى بها عنترة العبسي من قبله، فالأنساق الثقافية هي قوانين/تشريعات أرضية من صنع الإنسان وضعها الإنسان لضبط نفسه ولتصريف أموره في الحياة. وهي قابلة للتطور شأنها شأن كل عناصر الحياة.

قائمة المصادر والمراجع:

1- بشرى موسى صالح، بويطيقا الثقافة نحو نظرية شعرية في النقد الثقافي ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2012.

2- حسن طه نجم، أمريكا اللاتينية- أرضا وسكانا دراسة جغرافية إقليمية، ط1، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، 1990.

3- عبد الله الغذامي، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 2009.

4- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء،2001

5- كمال رايس، الاحتفاء بالهوية والقومية العرقية: أدب الزنوجة أنموذجا (مخطوط)، ضمن مشروع PNR.

6- الصادق محمد آدم، قضايا الأدب الإفريقي وتحدياته: قضية الزنوجة، سودانيل صحيفة إلكترونية سودانية، شبكة الأنترنيت: www.sudaress.com

7- عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة، ط1،الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، 2010.

8- عنترة العبسي، الديوان، ط4، مطبعة الآداب، بيروت، 1893.

9- محمد الفيتوري، قصيدة إلى غسان كنفاني، شبكة الأنترنيت: www.adab.com

10-نادر كاظم، تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار الفارس للنشر، بيروت، الأردن، 2004.

11-هيثم عبد الله صالح، الزنوجة في الشعر الإفريقي والكريولي، شبكة الأنترنيت: www.almashhed.com

12-يوسف عليمات، جماليات التحليل الثقافي، الشعر الجاهلي نموذجا، ط1، دار الفارس للنشر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، بيروت، 2004.